

ب) ان البلاد العربية لم تُبْتَل بتفتت سياسي واداري واقتصادي ، مثل الذي ابتليت به البلاد الرومانية في عصور الاقطاع الطويلة .

ج) ان الامية المطلقة لم تنفش في البلاد العربية في وقت من الاوقات بقدر ما تنفش في العالم الغربي خلال العصور الآنفة الذكر .

د) ان البلاد العربية لم ينزل بعضها عن بعض انعزالا يشبه الانعزال الذي حصل في البلاد الرومانية . بل ظل الاتصال بين مختلف أقطارها قائما ، بفضل القوافل التجارية التي لم تنقطع عن الازدهار من ناحيته ، وقوافل الحج التي ظلت تنقل جماعات كبيرة من المسلمين كل سنة ، من مختلف أنحاء البلاد الى الحجاز من ناحية أخرى

هـ) ان الديانة الاسلامية التزمت العربية الفصحى التراماً تاماً، وظلت تساندها وتوازرها دون انقطاع، ولم تنخل عنها اللهجة من اللهجات، في وقت من الاوقات» ولهذا الاسباب الاساسية كلها . اختلف مصير اللغة العربية عن مصير اللاتينية اختلافاً كلياً .

فان الاحداث والعوامل التي ذكرناها آنفاً قد تضافرت على ادامة حياة اللغة العربية . في حين ان العوامل التي احاطت باللغة اللاتينية انتهت الى اقصائها عن ميدان الاستعمال . وجعلها تنتقل الى عالم الاموات . بعد أن أنجبت «اللغات اللاتينية» المعلومة الآن .

— 2 —

ولإزالة جميع الشكوك التي قد تساور بعض الازهان أرى من المفيد أن اوضح اهم الفوارق التي ذكرتها آنفاً ، بشيء من التفصيل .

ا) لقد قلت : ان اللغة العربية — بعد أن استقرت في العالم العربي الحالي — لم تتعرض الى غزوات أخرى، كالتى تعرضت اليها اللغات الرومانية، من جراء استيلاء القبائل الجرمانية، واستيطانها في مختلف أنحاء البلاد .

الواقع أن عدة اسر مالكة غير عربية استولت على زمام الحكم في مختلف البلاد العربية ، في تواريخ مختلفة إلا أن حكم تلك الاسر المالكة لم يتم بفضل جماعات كبيرة من بني قومهم ، ولم يترافق باستيطان عدد كبير من تلك الجماعات، ولذلك لم تلبث تلك الاسر المالكة أن استعربت ، فبنت لغة البلاد .

ولم يشذ عما قلناه آنفاً إلا اسرة مالكة واحدة ، وهي اسرة بني عثمان ، فانها لم تستعرب مثل سائر الاسر المالكة ، لان عاصمة ملكها كانت — وظلت — خارج البلاد العربية . ونستطيع ان نقول : انها حكمت البلاد العربية — وظلت تحكها — من الخارج ، على مبعده منها . وفضلا عن ذلك كانت لغتها ضعيفة جداً حيال العربية ، ولهذا السبب تأثرت هي بها اكثر مما أثرت فيها . فتأثير لغة بني عثمان في اللغة العربية ظل محدوداً ، على الرغم من استمرار حكمها مدة تقرب من أربعة قرون .

ولا نغالي اذا قلنا : ان تأثيرها الاساسي لم يتجاوز كثيراً أمر تأخير نهضة الادب العربي ، من جراء عدم وجود دولة عربية تشجع الادب . وتهيء له وسائل التقدم والنهوض .

* * *

ب) وقلت : إن البلاد العربية لم تُبْتَل بتشتت وتفتت يماثل أو يقارب ما ابتليت به البلاد الاوربية خلال العهود الاقطاعية .

«» يضاف الى هذا كله ان الشعوب العربية تشعر بوحدتها وتطالب بها ، على حين ان الشعوب اللاتينية تشعر على العكس بقومياتها مستقلة ولا يود أي منها الاندماج مع غيره في قومية واحدة — (اللسان العربي) —

منذ ظهور الاسلام ، وصارت تنفذ فيه بصورة فعلية
وبمقياس واسع ، منذ القرن الاول للهجرة .

ولذلك عم تعليم القرآن في جميع الجهات بسرعة
كبيرة . ومن المعلوم أن لغة القرآن ، هي اللغة العربية
الفصحى .

ومما تجب ملاحظته في هذا المضمار أن الكنائس
المسيحية في البلاد العربية ، هي أيضاً انتهت الى التزام
العربية الفصحى ، فان الكنائس الشرقية جعلت العربية
لغة الصلوات والمواعظ منذ قرون عديدة . كما أن
البروتستان أيضاً اعتمدوا ترجمة الانجيل الى اللغة العربية.
والكنيسة الارثوذكسية كذلك ، جعلت العربية لغة
الطقوس والصلوات والمواعظ ، بعد أن تخلصت من
ريقة اليونانية .

ولهذه الاسباب العديدة ظل اتصال العرب باللغة
الفصحى وثيقاً ، فلم يترك مجالاً لتباعد لغة الكلام عن
لغة الكتابة تباعداً كبيراً .

والقوارق بين لغة الكلام ولغة الكتابة - بين العامية
والفصحى - لم تتعد قط حدود فوارق اللهجات ، التي
لا تحول دون تفاهم اصحابها ، بشيء يسير من الجهد
والانتباه ..

واذا كان الناس لا يتكلمون الآن بالعربية الفصحى
فانهم لا يعجزون عن فهمها ، ولو كانوا اميين .

فضلا عن ذلك اننا نلاحظ ان اللغة الفصحى صارت
تزداد تأثيراً وتغلباً على اللهجات العامية شيئاً فشيئاً ، منذ
بدأت النهضة الفكرية والقومية في مختلف الاقطار
العربية . حتى أن التقدم في هذا المضمار اصبح يظهر الى
العيان - ويلبس لمس اليدين - حتى خلال عقد واحد من
السنين . وهذا على الرغم من عدم وجود خطة موضوعة
لمكافحة العامية ونشر الفصحى بصورة منتظمة فعالة .

الواقع أن البلاد العربية أيضاً فقدت «الوحدة السامية»
وانقسمت الى دول ودويلات عديدة ، إلا أن عدد هذه
الدول والدويلات ظل محدوداً . ولم يصل الانقسام
السياسي في العالم العربي - حتى في أسوأ عهود وملوك
الطوائف - ولو من بعيد - الى درجة التفتت العام الذي
حدث في العالم الغربي ، حيث أصبحت كل مقاطعة
- وكل مدينة تقريباً - مستقلة ومنطوية على نفسها .

(ج) وقلت : ان الديانة الاسلامية التزمت العربية
الفصحى كل الالتزام ، ولم تتخل عنها للهجة من اللهجات
العامية ، في يوم من الايام .

وذلك لانها لم تعهد بمهمة تلاوة القرآن الى أمية
المساجد وخطباء الجوامع وحدهم - كما فعلت الديانة
المسيحية في العالم الروماني - بل فرضت ذلك على كل
مسلم ومسلمة . فصار لزاماً على كل فرد أن يتلو طائفة
من الآيات القرآنية ، كل يوم خلال الصلوات الخمس .

حتى خلال الصلوات التي تؤدي بالجماعة ، يترتب
على كل فرد مؤتم بأحد المصلين ، أن يستمع الى ما يتلوه
الإمام جهراً من ناحية ، وأن يتلو - بعد ذلك - هو بنفسه
سراً آيات اخرى من ناحية ثانية .

ان هذه الاحكام الدينية استوجبت إنشاء مدارس
وكتائب كثيرة لتعليم القرآن - قراءة وحفظاً - الى جميع
الاطفال . وهذه المدارس والكتائب عمت جميع أنحاء
البلاد ، ولم تنقطع عن العمل ، حتى في أسوأ عصور
الانحطاط .

وكل ذلك ، حال دون انقطاع صلة العرب بالعربية
الفصحى ، بل ظل يذكرهم بها . ويوصلهم اليها . على
الدوام . عن طريق السماع المستمر ، والتلاوة .

ونستطيع أن نقول : أن فكرة «التعليم العام» التي
ظهرت في العالم الغربي مع ظهور البروتستانتية في القرن
السادس عشر للميلاد ، كانت قد تولدت في العالم العربي

انها استطاعت أن تغلب الى الآن على جميع عوامل
البيلة التي تألبت عليها خلال عصور الانحطاط الطويلة،
فلم تفقد نسخ الحياة ، حتى في عهود حكم الاجنبي
القاسي ، وعصور الاستعمار الخانق .

فلا يمكن أن تفقد حيويتها بعد الآن ، ويخطيء من
يظن أنها ستقف عن النمو والازدهار في عصور النهضة
وعهود الاستقلال ، و.. لاسيما.. بعد بزوغ فجر الاتحاد
انها لا تزال حية ونامية ، ولاشك في أنها ستزداد
نمواً في مستقبل الايام ، وستصبح أشد حيوية مما هي
الآن.....

ان اللغة الفصحى هي الآن لغة القراءة والكتابة
والدرس ، في جميع المدارس والمعاهد العربية ، التي
صارت تعد بعشرات الآلاف والتي تجمع كل يوم
عدة ملايين من التلاميذ والطلاب .

والجرائد اليومية تصدر في جميع الاقطار العربية
باللغة الفصحى . ومن المعلوم أنها تطبع كل يوم مئات
الآلاف من النسخ . تتناولها أيدي الملايين من القراء . من
مختلف الطبقات .

فلا يجوز - والحالة هذه - تشبيه العربية الفصحى
باللاتينية ، بوجه من الوجوه .

مدخل إلى اللغويات التطبيقية

تأليف : س. بيت كوردر
ترجمة الأستاذ جمال صبري

نشر فيما يلي ترجمة الفصل الأول من كتاب

INTRODUCING APPLIED LINGUISTICS

استعمالها من جانب مجموعة من المهنيين الذين تقوم اللغة بدور رئيسي في انشطتهم . واعتقد كأحد محصي اللغة ان اللغويات التطبيقية يفترض فيها اولا ان تكون « لغويات » . بمعنى ان المرء لا يستطيع استخدام ما لا يملكه . وعلى هذا : فان القارئ الملم باللغويات فعلا سيجد ان القسمين الاولين يحتويان على مادة مألوفة ، الى حد كبير ، بالرغم من ان تأكيدى نسبيا على الفروع المختلفة لدراسة اللغويات يعكس اهتمامها بتعلم اللغات اكثر مما يعكس درجة الاكتفاء النظرى التى حققتها تلك الفروع . اما بالنسبة لمن لم يتلقوا تدريبا ما على اللغويات . فان القسمين الآنفى الذكر يزودانهم بنظرة عامة شاملة او « عرض » لما تتناوله اللغويات ، كما تراها عين عالم اللغة التطبيقى ، اكثر من تزويدهم بمقدمة شكلية للموضوع ، فاذا كان العرض الذى قدمته يثير اهتمامهم : فثمّة مداخل ممتازة عديدة للموضوع لهم ان يرجعوا اليها .

مقدمة :

تعليم اللغات : فن وعلم

غالبا ما يقال ان تعليم اللغات فن ، فاذا كان

كان هدفى من تأليف هذا الكتاب بيان الصلة بين الدراسات التى يطلق عليها ، اجمالا ، (الدراسات اللغوية) وبين عدد من المهام العملية المتصلة بتعليم اللغات . من المؤكد ان هناك نفرا من القراء يختلفون بشأن الصلة بين (الدراسات اللغوية) و (تعليم اللغات) الا انهم قد يوجهون النقد لى لتقيدى الضمنى بقصر استخدام مصطلح « اللغويات التطبيقية » على مجال النشاط هذا . على اساس انه ثمة مهام عملية اخرى خلاف تعليم اللغات لها صلة بمعرفة اللغويات . هذا ، وانا لا اختلف مع هؤلاء القراء ، من حيث المبدأ ، ومع ذلك اتول انه بسبب الاهتمام العام بتعليم اللغات ، وبسبب التأييد الرسمى العظيم الشأن الذى انيط فى السنوات الاخيرة بالبحوث والتعليم فى تطبيق اللغويات على تعليم اللغات : شاع هذا المصطلح وقصر استخدامه فعلا على هذا النحو .

وبالرغم من ان هذا الكتاب موجه اساسا لتدريب معلمى اللغات واولئك الذين يعدون انفسهم ليصبحوا معلمى لغات . أمل ان يلقى اهتماما من جانب علماء اللغة الذين يودون معرفة شىء ما عن استخدام ابحاثهم واساليبهم واطرافاتهم وطريقة

اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات :

ليس هذا كتابا خاصا بتعليم اللغات ، وهو ليس دليلا تعليميا عن كيفية تدريس اللغة ، اذ ثمة كثير من الكتب التى يعول عليها او التى لا يعتمد بها والتى تتسم بالتضليل فى هذا الموضوع . اما كتابنا هذا فيدور حول مساهمة اضافات واساليب المعنيين بدراسة اللغة بطريقة علمية من قبيل عالم اللغة والعالم النفسى وعالم اللغة الاجتماعى (هذا ، اذا اقتصرنا على ذكر اهم الفئات) ، الذين يمكنهم ايجاد الحلول لبعض المشكلات التى تنشأ فى دور تخطيط وتنظيم وتنفيذ برامج تعليم اللغات ، انه كتاب عن اللغويات التطبيقية .

وهناك بالطبع فائدة من النظريات الخاصة بطبيعة اللغة البشرية لاناس آخرين بالاضافة الى كونها مفيدة لمعلم اللغات ، وانه لمن الخطأ أن نربط ربطا مطلقا بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فثمة اناس آخرون يضطلعون بأنشطة عملية تلعب فيها اللغة دورا رئيسيا ، ومن ثم فمعرفة بطبيعتها مفيدة عند معالجة المشاكل التى تنشأ عن عملهم ، وتضم تلك الفئة من الناس ، على سبيل المثال ، اخصائى علاج عيوب الحديث ، والناقد الادبى ، ومهندس المواصلات السلكية واللاسلكية . هذا ، ونحن لا نربط بين اللغويات التطبيقية وتعليم اللغات ، فهما نشاطان مختلفان ولا يمثل أحدهما الآخر ، فتطبيق المعرفة بعلم اللغويات على شىء ما — او اللغويات التطبيقية كما يدل عليها اسمها — يعد نشاطا فى حد ذاته ، وهى ليست دراسة نظرية ، بل أنها تستفيد مما توصلت اليه الدراسات النظرية ، ويعد العالم اللغوى بمثابة المستخدم للنظريات لا مؤسسها ، واذا ما استخدمنا المصطلح « نظرية » كما يستخدم فى العلم ، فليس هناك شىء من قبيل « نظرية تعليم اللغات » او « نظرية علاج عيوب الحديث » او « نظرية النقد الادبى » . وتعليم اللغات كذلك نشاط فى حد ذاته ، غير أن تعليم اللغات ليس هو نفس نشاط اللغويات التطبيقية ، ومع ذلك اذا فرنا تعليم اللغات بأوسع ما يحمله المعنى بحيث يشتمل على كافة عمليات التخطيط واتخاذ القرارات التى تتم خارج حجرة الدراسة ، كان من الممكن وجود عنصر اللغويات التطبيقية فى عملية

المقصود بهذا القول هو أن تعليم اللغات نشاط ينطوى على مهارة فائقة تكسب بالملاحظة النابهة والممارسة المتأنية ، فهى ملاحظة لا طائل من ورائها . ولكن الذى يكمن وراء هذا القول الجزم هو أن العلم والفن مطلقان بالتبادل ، ومن ثم لا يمكن للعلم أن يؤدي أى دور فى تعليم اللغات . هذا ، ونحن نسمى النشاط العملى الخاص فنا حين لا يمكن تنفيذه بنجاح باتباع مجموعة من القواعد المتاحة ، وحين تكون معرفتنا بكافة العوامل التى ينطوى عليها هذا النشاط ناقصة ، يجب ، نتيجة لذلك ، ترك القرارات الخاصة بكيفية المضى قدما لمعرفة ممارس النشاط وخبرته . وتعليم اللغات عبارة عن نشاط من هذا القبيل ، فهو ينطوى على عدة اعتبارات مختلفة أو ، اذا استخدمنا المصطلح الفنى ، « متغيرات » ، لا يمكن تقييم أو قياس اهميتها النسبية وقيمتها حتى لو كنا على علم بها جميعا ، ولهذا السبب لا يمكن حساب عملية تعليم اللغات باستخدام الحاسب الالى اذ يتعذر وضع نموذج رياضى لها ، أو اخضاعها لمجموعة من الاجراءات النظامية المرتبطة بطريقة منطقية ، او للوغاريتم ، ولكن لما كانت كافة هذه المتغيرات غير معروفة أو يمكن تحديدها من حيث الكم أو السيطرة عليها ، فان ذلك لا يعنى تطبيق هذه الخصائص على أى منها . فمثلا ثمة جملة من العوامل التى يجب وضعها فى الاعتبار فى اية عملية تعليمية وهى : قدرات التلاميذ واستعداداتهم الفطرية وقدراتهم الذهنية ، ومواقفهم او دوافعهم ازاء عملية التعلم ، وكلها أمور محصها علماء النفس التربويون ، ويمكن على الاقل وصف وقياس وضبط بعض سماتها .

ولكن ثمة مجموعة هائلة من المعارف المتاحة عن طبيعة اللغة البشرية وعن كيفية تعلمها ، وعن الدور الذى تؤديه اللغة فى حياة الفرد والمجتمع ، فهناك البحث العلمى الذى يتولاه المعنيون بدراسة مسائل اللغة البشرية كما يتولاه علماء اللغة ، والذى يجب أن يكون ذا تأثير ما على بعض المسائل التى تنشأ عند تخطيط برنامج تعليم اللغة وتنفيذه . وتوفر اللغويات مجموعة متزايدة من المعارف العملية حول اللغة ، وهذه المعارف بمثابة الموجه لنشاط معلم اللغة . ويتلخص موضوع هذا الكتاب فى كيفية الاستفادة من هذه المعارف بأكبر قدر مستطاع .

تعليم اللغات برمتها ، تماما كما أن هناك عنصر اللغويات التطبيقية في عملية علاج عيوب الحديث أو النقد الأدبي برمتها .

اذن فهذا كتاب عن اللغويات التطبيقية في تعليم اللغات ، كتاب عن تلك الاجزاء الاجمالية من عملية تعليم اللغات التي يتم بها اتخاذ القرارات على ضوء طبيعة اللغة البشرية ، وكيفية تعلمها ، ودورها في المجتمع . ويعالج الكتاب اجزاء العملية التي تتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجي القائم على المعرفة المكتسبة بالاسلوب العلمى .

وبالرغم من مئات السنين التي تمت خلالها دراسة اللغات في الحضارات المختلفة ، ما زلنا لا نعلم سوى القليل عن سماتها . هذا ، وكانت خطى البحث اسرع في السنوات الاخيرة ، واصبحت اساليبه اكثر دقة الى الحد الذى يمكننا معه الآن ان نزعم ، ولنا بعض التبرير وفي حدود معينة ، ان الدراسات اللغوية تقوم على العلم ، ولهذا قلت ان اللغويات التطبيقية تعالج ذلك الجزء من تعليم اللغات الذى يتعرض بقوة لنوع ما من الترتيب المنهجي الدقيق ، غير اننا ما زلنا بعيدين كثيرا عن ذلك الترتيب المنهجي ، كما سيتضح في الفصول التالية من الكتاب ، ولهذا السبب لا يمكن للغويات ، حتى الآن ، ان تعطى سوى اجابات محددة قليلة لمسائل تعليم اللغات ، اذ ان عمر اللغويات التطبيقية ، كمجال للدراسة ، لا يزيد على مدة العشرين عاما ، وللقارئ نفسه ان يحكم على مدى ما تم انجازه في تلك الفترة .

عملية تعليم اللغات :

اشرت في القسم الاخير الى « العملية الاجمالية لتعليم اللغات » وقد فعلت ذلك لان المصطلح « تعليم » مبهم المعنى الى حد كبير ، فهو غالبا ما يشير الى نشاط المعلم في حجرة الدراسة والى تفاعله مع تلاميذه ، غير ان المعلمين يعرفون ان ذلك يمثل نقطة النهاية في نشاط يستنفد الوقت ، والتخطيط ، والاعداد التفصيلي ، والتصويب ، وتقييم النشاط ، وكلها امور لها اهميتها حقا وتعد جزءا لا غنى عنه في عملهم ، الا ان ما لا يعترف به المعلمون عن طيب نفس دائما هو اعتمادهم على عمل الآخرين الذين يساهمون فيما يجرى في حجرة الدراسة والى حد ما ، يقررون ما يجرى فيها ، فالمعلمون يستخدمون الكتب المقررة والادوات والمعينات البصرية

وغيرها من معينات ، ويعملون وفقا لمنهج وجدول زمني ، وغالبا ما يقدمون تلاميذهم للاختبارات او الاختبارات التي يقوم اناس آخرون باعدادها . وفي اغلب الاحيان ينعدم الدور الذى يؤدونه في هذه المواد والخطط او يتسم ذلك الدور بالبساطة ، الا ان هذه المواد والخطط تسهم او حتى تتحكم ، الى حد ما ، فيما يدور في حجرة الدراسة ، ومن ثم فائى. اضمن عملية التعليم الاجمالية كل ما يتعلق بالتخطيط واتخاذ القرارات مهما كان مستوى تأثيرها المباشر او غير المباشر على ما يجرى في حجرة الدراسة . واذا اعتبرنا ان دور المعلم يكمن في تهيئة الظروف التي يمكن لعملية التعلم ان تتم فيها على خير وجه ، وعلى هذا فكل القرارات التي تؤثر في هذا الهدف تعد كجزء من عملية التعليم الكلية ، وتتخذ بعض هذه القرارات على الاكمل في ضوء نهجنا الحالي لطبيعة اللغات .

تتخذ القرارات وتوضع الخطط على مستويات مختلفة ، ففي المستوى الاعلى تكون القرارات سياسية اذ تقوم الحكومات والوزارات باتخاذها ، والقرارات على هذا المستوى تكون ذات طبيعة عامة من ناحية الاتفاق على تدريس اللغات ، واى اللغات تدرس ، وما المبالغ التي يجب رصدها لتدريب المعلمين ودفنح رواتبهم . وقد يظن المرء ان ليس لعلماء اللغوية ما يساهمون به في هذا الشأن غير انه من المؤكد ان تلك هى الحال في معظم البلدان الاوروبية ، اما في الدول المتعددة اللغات في افريقيا وآسيا فان القرارات المتعلقة باى اللغات تدرس وفي اى مستوى من نظام التعليم يجب تدريسها — تعد قرارات صعبة ، تتخذ فعلا ، والى حد ما ، على اساس دراسات يجريها علماء اللغة الاجتماعيون من حيث توزيع اللغات المختلفة في المجتمع ، ووظائفها المختلفة ، والدور الذى تؤديه هذه اللغات في الحياة السياسية والتجارية في المجتمع ، وفي اتصالاتها بالعالم الخارجى ، هو احد مجالات الدراسات اللغوية التي تعرف احيانا « بالتخطيط اللغوى » .

وبعد اتخاذ مثل هذه القرارات السياسية ، اساسا ، ثمة ناحية اخرى من التخطيط واتخاذ القرارات تقوم على اعتبارات اقتصادية وادارية واجتماعية في نطاق الدولة ، من قبيل ذلك طول فترة تعليم لغات معينة ، والاهداف من تعليمها ، ومن يتعلمها . وقد تحتل مثل هذه القرارات مكانة ادى في تسلسل السلطة ، وغالبا ما تتسم تلك القرارات

بالإقليمية وتمتد أحيانا على البنية الادارية لنظام التعليم في المدرسة ذاتها ، وهنا لعالم اللغة الاجتماعى دور يوديه .

ويمكننا معا تصنيف جميع القرارات الاساسية المتعلقة بتحديد اهداف تعلم اللغة وتوفير الوسائل اللازمة لذلك على قمة التسلسل الهرمى لبنية العملية الاجمالية لتعليم اللغات ، أما المستوى الثانى فيتعلق بتنفيذ هذه القرارات بصفة عامة ، بالاضافة الى مشكلات ما يجب تدريسه وكيفية تنظيمه ، هذا ما يدور حوله موضوع هذا الكتاب اذ أن عند هذا المستوى تكون مساهمة اللغويات في تعليم اللغات فعالة بصفة أساسية . وللغويات التطبيقية صلة باستنباط المناهج والمواد لتنفيذ مرام سلطات التعليم سواء على المستوى المحلى أو القومى . وتتصل المناهج بلغات معينة يجب تدريسها لمجموعات معينة من الدارسين ، الى حد ما ، لاهداف محددة في حدود معينها من حيث الوقت والتكاليف ، وتعد الكتب المقررة و مواد التدريس بكافة انواعها هى التحقيق المادى للموس لخطة المناهج .

أما المستوى الثالث الذى تتخذ عنده قرارات تعليم اللغات فيتمثل في حجرة الدراسة ، ومن الواضح

هذا ويمكننا تلخيص محتوى القسمين السابقين في الجدول التالى :

جدول رقم 1 : التسلسل الهرمى

لوظائف التخطيط في العملية الاجمالية لتعليم اللغات

المستوى الاول	سياسى	الحكومة	هل يتم تعليم اللغات ؟ اى لغات نعلم ومن الذى يتعلمها ؟
المستوى الثانى	لغوى واجتماعى	اللغوى التطبيقى	الذى يجب تدريسه ؟ ومتى ، وما تدر ما يتم تدريسه ؟
المستوى الثالث	لغوى نفسانى وتربوى	معلم الفصل	كيفية التدريس

النجاح في تعليم اللغات :

يعد عالم اللغة التطبيقى مساهما في عملية تعليم اللغات برمتها ، وهو لا يتحكم فيها ، كما لا يتحكم فيها معلم الفصل ، كذلك ناظر المدرسة ووزير التربية لا يتحكما في هذه القضية ، اذ أن عملية تعليم اللغات عبارة عن مشروع تعاونى ، وكلما زاد فهم كل مساهم

أن المساهمة اللغوية عند هذا المستوى مساهمة نفسانية ، وتتعلق بكيفية تعلم الامراد اللغات الاجنبية ، غير أن الاعتبارات الاخرى تمثل دورا آخر : المبادئ التربوية العامة المتعلقة بالدواع والنواقف والذكاء والاستعداد الشخصى ، وهذه الاعتبارات بعيدة عن كونها اعتبارات لغوية ، ولها اهميتها في تدريس الموال كما هو شأنها في تدريس اللغات . . فاولئك الذين يخططون عند المستوى الثانى لا تتوفر لديهم المعلومات التفصيلية المتاحة لمعلم الفصل ، ويمكنهم الاهتمام بهذه المتغيرات بطريقة عامة تماما ، فالراء لا يصادف مناهج او مواد تعليمية معدة ، بصفة خاصة ، للتلاميذ الاذكياء اللامبالين في الثانية عشرة من عمرهم !

كان التقليد السائد ان يعهد بعملية اعداد المناهج والمواد والكتب المقررة لتعليم اللغات الى المعلمين من ذوى الخبرة ، وما زال هذا التقليد متبعا الى حد كبير ، أما في وقتنا الحاضر فان هذا الاجراء يتم ، كمجهود تعاونى كما هو الحال بالنسبة لتطوير المقررات فى المجالات الاخرى ، فيعمل المعلمون ذوو الخبرة من خلاله مع المتخصصين في موضوع البحث (وغالبا ما يكون المتخصصون من المعلمين ذوى الدربة) ، وفي هذه الحالة يمثل المتخصصون ما أسميهم بعلماء اللغة التطبيقيين .

فيه للمبادئ التى يتم بموجبها اتخاذ القرارات على كافة المستويات ، زادت فرص نجاح العملية برمتها ، ولكن علينا أن نتوقع طوال الوقت وجوب ايجاد حلول وسط ، فمثلا قد يقترح عالم اللغة النفسانى وجود سن امثل لبدء دراسة اللغات الاجنبية ، وقد تشير الاعتبارات السياسية والاقتصادية الى أنه من غير

الجزء الأول اللغات وتعلمها الفصل الأول آراء فى اللغة

ماهية اللغة :

ان القرارات التى نتخذها بوعى وبلا وعى ، عند القيام بتنفيذ مهمة عملية ما تتأثر بالأراء التى نتقبلها بشأن طبيعة الشيء الذى نعالجه ، ولكل امرئ ما نسميه « بالنظرية اللارسمية » عن اللغة واذا كان من معلمى لغة ما فله نظرية لا رسمية خاصة عن كيفية تعلم تلك اللغة ، وتوصف النظرية بأنها غير رسمية لانها ليست قاطعة أى انه لا يعبر عنها بصيغة منطقية دقيقة - ونتيجة لذلك فقد تحتوى على مفارقات وتناقضات كامنة ، وهى ، بهذا المعنى ، لا تتسم بالعلمية . ربما كان من الادق ان نقول ان كل امرئ يؤمن بعدة نظريات غير رسمية عن اللغة ، ويكون جزء من النظرية تناقضا مع اجزاء نظرية أخرى، فاللغة شيء جد معقد ، ولا يمكن لاي فرد ان يجد لها تعليلا مرضيا تماما فى نطاق نظرية شاملة متكاملة . هذا ومن المؤكد ان علماء اللغة قد وجدها كذلك ، ولهذا السبب نحين يوجه الى احد علماء اللغة سؤال : ما هى اللغة ؟ فمن المحتمل ان يجيب بسؤال آخر : ولماذا تود ان تعرف ؟ فاذا كنا نقوم بتعليم اللغات فان اسلوبنا فى أداء تلك المهمة يتأثر او يتحدد وفقا لاعتقادنا فى ماهية اللغة ، وللنظرية المعينة غير الرسمية او النظريات التى نؤمن بها بخصوص اللغة والتى تبدو وثيقة الصلة بالمشكلة المعينة التى تواجهنا .

وبصفة عامة ، ثمة علاقة وثيقة بين الاسلوب الذى نتبعه فى الحديث عن شيء ما وبين اسلوبنا فى النظر الى ذلك الشيء ، فاللغة التى نستخدمها حياله تخدم آراءنا عن ماهيته . اذا اردنا معرفة آراء امرئ ما فى اللغة ، فنجب ان نستمع الى اللغة التى يستخدمها فى الحديث عنها ، فاذا فعلنا ذلك فسرعان ما نلاحظ انه يبدو ان الافراد يؤمنون بوجهات نظر متنافرة حول طبيعة اللغة ، فمثلا ، نسمع الناس عادة يتحدثون عن « استخدام اللغة » : « لقد استخدم لغة مروعة » ، انه استعمل لفظة لم اتمها ، ما فائدة

المستحب ، نتيجة لتحليل عوامل الكلفة والريح ، رصد الاموال اللازمة لتوفير معلمين مؤهلين عند ذلك المستوى . وهنا يتصارع البدآن ، وتمثل الخطة النهائية نوعا من الحل الوسط . هذا ويشترك كل المساهمين فى العملية الاجمالية لتعليم اللغات فى انجاحها ، المجتمع ممثلا فى سلطات التعليم ، وعالم اللغة التطبيقى ومعلم الفصل . غير ان الصعوبة ، كما هو الحال فى جميع العمليات التعليمية ، تكمن فى تعريف معنى « النجاح » ، فالمجتمع قد يعرفه بمفهوم التكامل الاجتماعى ، او العائد التجارى ، او بأحد مفاهيم الانسان المتعلم ، اما المعلم فقد يعرفه بمفهوم الاتجاز الاكاديمى او « تحقيق الفرد لذاته » ، بينما قد يعرفه العالم اللغوى من حيث اكتساب بعض مهارات الاداء اللغوية التى يمكن قياسها . غير ان الافراد هم الذين يتعلمون اللغات لاسباب عديدة ومختلفة ، اما لانهم يجدون متعة فى ذلك ، او لان تعلم اللغات نافع فى تقدمهم الاكاديمى ، او فى مسالكهم المعيشية ، او لانه يفتح امامهم فرصا للاحتكاك والثراء الاجتماعى والثقافى . وهم لا يبحثون او يحتاجون ، بالضرورة ، الى نفس مستوى القدرة على الاداء او حتى نفس مجموعة المهارات اللغوية ، فما يعد نجاحا لاحدهم قد يكون فشلا لسواه ، فطالب العلم ، كسردي ، يهتم بالنجاح وفقا لمفهومه الخاص به .

ويحتاج المرء الى مقياس ما او الى جهاز معين لقياس النجاح ، ولكن لم يتقدم اى انسان حتى الان باقتراح وسيلة لقياس النجاح فى تعلم اللغات ، بمفهوم المجتمع ، سواء المفهوم الثقافى ، او الاجتماعى او التجارى . اما من حيث تحديد اهداف المعلم والمتعلم وعالم اللغة التطبيقى فى مجال اللغة من قبيل المهارات والمعارف المحددة ، فيمكن استنباط وسيلة ما لقياس تلك المهارات والمعارف ، ويمكننا بوجه عام قياس ما يمكننا وصفه ، وتعطينا اللغويات اطارا لوصف ما تقصده بالمهارات والمعارف فى لغة ما ، ومن ثم تجعل فى استطاعتنا ، من حيث المبدأ ، القول ان اسلوبا واحدا للتعليم او مجموعة من مواد التعليم أنجح من غيرها لتحقيق هدف معين مع مجموعة معينة من الدارسين . هذا ، ولا يمكن تحقيق تحسن منتظم فى تعليم اللغات من غير الالمام باللغات ، المما تزودنا به اللغات نفسها .

الاستعارة للتحدث عن اللغة ، وتشارك كل الاستعارات في ذلك بالرغم من أنها جميعا تتعامل مع اللغة «كشيء» إلا أنها تسبغ على اللغة صفة المادية .

كذلك نجد الناس يتحدثون عن اللغة « كحادث » ، فيقولون أن محادثة « وقعت » ، وأن الكلمات « تحل » في مناقشة ، بل أننا أحيانا نتحدث عن خطاب القاه شخص ما على أنه « حادث المساء » .

إن اللغة شيء ما « نعرفه » ، ونحن نسأل المرء عما إذا كان « يعرف » الفرنسية أو الألمانية ، أو عما إذا كان « يعرف » كلمة أو أخرى . واللغة أيضا شيء « نفعله » ، فنحن نكتب ، ونقرأ ، ونتحدث بطريقة حسنة أو رديئة . ونحن في هذه الحالة نعامل اللغة ، كسلوك ، يتطلب مهارة وحذقا ، علينا أن نتعلمه ، وهو سلوك يتحسن عن طريق الممارسة .

وتكشف الالفاظ التي نستخدمها في حديثنا عن اللغة وعن مجموعة مختلفة من أساليب النظر إليها والتي وأن كنا نعترف بأنهما أساليب استيعابية في الغالب ، فهي تدل على تباين منطقي معين . والمشكلة لا تكمن في أي من تلك الأساليب « صحيح » . فجميعها صحيحة في سياستها ، إلا أنها لا تتسم واحدة منها بالتمام أو الشمول . وما علينا إلا أن نعترف بأن اللغة ظاهرة معقدة لا يمكن لوجهة نظر واحدة أن تحيط بها . والسؤال الذي يجب أن نوجهه هنا لا ينبغي أن يكون عن أي الآراء « صحيح » بل أي منها « نافع » ، وأي منها « مناسب » لتعليم اللغات . هل يمكننا القول بأن معلم اللغة يمكنه تجاهل أي من المعالجات لقضية اللغة من قبيل المعرفة أو السلوك أو المهارة أو الحادثة أو الشيء .

مشكلة « البعد النفسي » :

كما سبق أن أشار العلماء دائما أن دراسة لغة ما — كما هو الحال بالنسبة لدراسة أية صفة مميزة للإنسان والمجتمع — تكنفها صعوبة منشؤها أن هذه الدراسة أو تلك تتعرض لشيء مألوف تماما ، فكل فرد « يعرف » عن اللغة ، لأن الجميع يستخدمونها في كل وقت ، وكل فرد « يعرف » عن المجتمع وعن السلوك الاجتماعي ، لأن الجميع أعضاء في المجتمع ، وهذا أمر « طبيعي » على وجه ما ، هذا ، والتناقض بين

اللغة الفرنسية ؟ » وهذا يوحي بأن اللغة عبارة عن شيء يشبه الاداة التي يمكننا التقاطها ، واستخدامها في غرض ما ثم تركها ثانية ، بل أحيانا يطلق الإفراد على اللغة لفظة أداة ، كما أننا نتحدث عن « حيازة » الناس للغة . فمثلا كتب جونسون أن شكسبير كان لديه « تليل من اللغة اللاتينية وقد اقل من اللغة اليونانية » ، ويقال إن الأطفال « يكتبون » اللغة . ويبدو أننا أحيانا « نفقد » اللغة : « لا أستطيع أن أجد الكلمة المناسبة » . والآن ، إذا اعتبرنا اللغة سلوكا من نوع معين فحسب ، فإن ذلك يعد أسلوبا غريبا للتحدث عنها ، وهل نستطيع أن نتحدث عن « المشي » بنفس الطريقة ، هل نستطيع القول بأننا « نستخدم المشي للتوجه إلى جهة ما ؟ أو « نحصل » أو « نحوز » أو « نفقد » المشي ؟

غالبا ما يتحدث علماء اللغة ، بصفة خاصة ، عن كيفية « عمل » اللغة ، كما لو كانت اللغة أداة تشبه الساعة المنبهة التي يمكن فهم تشغيلها عن طريق دراسة بنيتها الداخلية من تروس ومستفات . ومن المهم هنا أنه بينما تدلنا دراسة البنية الداخلية للساعة عن كيفية عملها ، فإنها لا تدلنا عن الغرض من استخدام الساعات ، ومن الواضح أن الفكرة الخاصة بالبنية الداخلية تكمن وراء العبارات من قبيل « هذه الجملة ذات تركيب معقد » أو عبارة « دراسة تركيب جديد » في مجال التعليم . وبالرغم من أننا عادة ما نفكر في الآليات من حيث كونها أشياء لا حياة فيها ، فإننا كثيرا ما نشير إلى اللغة ككائن حي ، فنحن نتحدث عن « ميلاد » لغة ، وعن « نموها » و « تطورها » و « تدهورها » . هذا ، وللغات فترات من « الأزهار » و « الإزهار » (ودائما تكون هذه الفترات في الماضي) ، وتنسب اللغات أحداها إلى الأخرى في « عائلات » أو « تتولد الواحدة من الأخرى » ، وهي توصف بأنها إما « حية » أو « ميتة » كما أن للغات صفات مادية ومعنوية فهي « جميلة » أو « قبيحة » أو « سوقية » أو « منحطة » أو « متدهورة » .

ولست جادا حين أقول أن الناس يعتقدون حقا أن اللغة عبارة عن شيء مادي يمكن تداوله كآية أداة ، فقد استخدمت تلك الأساليب للتحدث عن اللغة من قبيل الاستعارة ، وأنه لمن الشائق أن نلجأ إلى

ما نعرفه عن بيئتنا الطبيعية وبين تكوينها واعمالها لانت للنظر حقا ، بل ان الحقائق الطبيعية البسيطة للغاية مثل القوانين التي تحكم تارجح المياد (البندول) او تسارع الاجسام الساقطة لا يمكن توقعها ، وأكثر من هذا انما تتعارض وصدق الحدس ، يقابل ذلك تمام الحقائق « الاولية » عن المجتمع او اللغة التي تصبح واضحة جلية متى تمت الإشارة إليها . اذا فصعوبة دراسة السلوك الاجتماعي للإنسان ، بما في ذلك لغته ، لا تتمثل كثيرا في التوصل الى البيانات — لان الكثير منها متوفر لدينا ، الى حد ما — ولكن الصعوبة تتمثل في اخراجها من داخلنا ، وفي فصلها عن أنفسنا بغية التوصل الى وجهة نظر موضوعية ، او اذا استخدمنا مصطلح كوموسكى (1968) Chomsky (1) لتحقيق « البعد النفسى » مما ندرسه . ان المعرفة العلمية معرفة عامة ، وهى موضوعية من حيث انها مفتوحة للتمعن والتحجيص والمعارضة من قبل اى فرد يعرف كيفية الشروع فى ذلك . والعالم اللغوى ، فى دراسته للغة ما ، انما يحاول الوصول الى هذا البعد النفسى ، ومن ثم فانه يجعل اللغة « موضوعية » او يسبغ عليها صفة المادية ويساعده فى ذلك ان كثيرا من الدراسة التقليدية للغة يعنى باللغات « الميتة » وبياناته عبارة عن « نصوص » . والتوصل الى « البعد النفسى » ، فى هذه الحالة ، امر اكثر سهولة ويسرا لان المراقب لم يكن يدرس بطريقة مباشرة سلوكه او سلوك المجتمع الذى ما زال قائما ، ويمكنه بكل سهولة ان يفصل فصلا تاما بين دراسة اللغة ودراسة الشعب الذى كان يتحدث بها ثقافته . فى واقع الامر كان السبب وراء دراسة لغة ما دائما هو ان تلك اللغة أصبحت شيئا غريبا وغير مفهوم ، نشأت عن الحاجة الى شرح نصوص أدبية او دينية قديمة او تقليدية ، الا ان العالم اللغوى كان على وعى بما يفعله حين يتبنى وجهة النظر هذه ، وذلك لا يعنى اعتقاده بأن اللغة عبارة عن « شئ » ، او ان للغة حقيقة موضوعية ك تلك التى للمياد (البندول) او للجسم الصلب الساقط

ومع هذا فالوصول الى ذلك « البعد النفسى »

سهل على اية حال ، وليس ذلك مقصورا على علماء اللغة وخدمهم ، فمنهم من يصدر بيانات او يفترض افتراضات لا تقوم على الدراسة الموضوعية ، بل على المعرفة « الخاصة » الحدسية ، شائهم فى ذلك شأن معلمى اللغات ، فكثيرا ما يقول معلم اللغة ان هذه الكلمة او تلك لا تستخدم « بتاتا » فى سياق بعينه ، فهل أسس تصريحه هذا على بحثه الموضوعى أم على بحث شخص غيره ؟ ان مثل هذه البديهييات الخاصة يمكن ان تلقى تعبيرا بصورة حتمية من قبل شخص غير واع ، وقد تكون بمثابة أحكام لها قيمتها ، وحين يؤكد شخص معين ان « الناس لا يقولون ذلك » ، فهل هذا التصريح عن حقيقة يمكن التدليل على صحتها ؟ وهل هى حقا من قبيل الأحكام ذات القيمة ؟ هل هذا يعنى ، حقا ، انه من غير المقبول ، من الناحية الاجتماعية ، قول ذلك ؟ وهنا ايضا يمكننا ان نسال : هل قام هذا التصريح على الفحص الموضوعى لما يفعله اصحاب اللغة الاصليون ، ولا يجدونه مقبولا فى موقف معين ، او هل ذلك يمثل الحكم الخاص للمعلم او للعالم اللغوى ؟ او انه يمثل أهواء وآراء طبقته أو منته الاجتماعية ؟ هذا ، ومن الممكن دراسة المواقف الاجتماعية ازاء اللغة بطريقة علمية ، فتلك المواقف كما سماها بلموفيلد (1944) Bloomfield (2) « استجابات من المرتبة الثالثة » للغة ، وكانت هذه المواقف موضوعا لدراسة اجراها ميتنز (1970) (3) Mittins

ولكن اذا قال شخص ما « تلك (النبذة من اللغة) ليست صحيحة » ، فلسنا دائما متأكدين مما اذا كان يصدر حكما ذا قيمة — مؤكدين بذلك ان الصيغة موضوع البحث لم تكن موافقة لبعض « المعلمين » لاستخدام اللغة والمجتمع من الناحية الاجتماعية (مثل نفى النفى غير صحيح) ، الذى كثيرا ما يستخدم فى نقض المهود ، او سياق حقيقة مرعية ، بحيث لا ينطق اى متحدث باللغة بمثل هذه المجموعة المتعاقبة من الكلمات (مثل : هذه — قصتى — رجل) ، وسنقوم بمناقشة هذه المشكلة فى الفصل الثانى .

- (1) Chomsky N. (1968) Language and Mind, Harcourt, Brace and World
(2) Bloomfield, L. (1944), 'Secondary and Tertiary responses to language', Language, n. 20 pp. 45 - 55
(3) Mittins, W.H. (1970), "Attitudes to English Usage", Language and Language Learning, n. 30 OUP.

اللغة والفرد :

اللغات على أنها دراسة للخواص والمعاملات والحالات المحددة للعقل الذي تعد مظاهره الخارجية سلوكا يمكن ملاحظته ، ما الذى ينبغى علينا « معرفته » حتى نتصرف وفقا لعلم اللغات ؟ وكما قال كوموسكى (1968) Chomsky (1) أن ما يحاول العالم اللغوى الذى يتبنى هذه المعالجة ، فعله هو « تثبيت خواص عامة معينة للذكاء البشرى ، وما اللغويات ، ببساطة ، الا مجال فرعى من مجالات علم النفس التى تعالج سمات العقل هذه » .

غير اننا لا نولد ونحن نتحدث اللغة ونفهمها ، فعلينا اكتسابها ، وعلى هذا فان التعامل مع اللغة بهذه الكيفية لا يعنى بما يجرى حين نتحدث ونفهم وهو ما سمى بالاداء اللغوى فحسب ، بل يعنى بالكيفية التى تصبح بها قادرين على أداء تلك الامور . ومن الواضح أن السلوك اللغوى عبارة عن مهارة معقدة لدرجة أنه يبدو من غير المعقول تماما أن يكتسبها طفل في فترة وجيزة ، وقد أوحى ذلك الى الناس أنه لا بد أن يكون الاستعداد الطبيعي لاكتساب تلك المهارة فطريا ، ولا بد أن تعنى أن البشر وحدهم هم الناطقون باللغات ، وان ثمة خاصية معينة بالجنس البشرى تخلق فيهم الميل الى اكتساب اللغات ويذهب بعض علماء اللغات وعلماء النفس في ذلك شاوا بعيدا اذ يرون أن الطفل يولد ولديه قدرة فطرية وارادة لتعلم اللغة . ويرى آخرون ، ممن يحتاطون في آرائهم ، أن القدرة والميل الفطري لاكتساب اللغة يعد من جملة وظائف القدرات الإدراكية للبشر التي تمكنهم من التعلم أصلا .

وتناول اللغة ، كظاهرة تخص الفرد ، انما يعنى اساسيا بتفسير كيفية اكتسابنا للغات ، وعلاقتها بالاجهزة الإدراكية العامة لسدى البشر ، وبالآليات النفسانية (السيكولوجية) التى تكمن وراء فهم الكلام وأدائه ، أكثر من عنايتها بالفرض من اللغات ، أى بوظيفتها كوسيلة تخاطب اذ أن ذلك ينطوى بالضرورة على أكثر من فرد واحد .

اللغة كظاهرة اجتماعية :

يتحدث الناس الى أنفسهم بدون صوت ، وأحيانا يتحدثون الى أنفسهم بصوت مسموع ، وينبغى لكل تقرير عن اللغة أن يضع ذلك موضع الاعتبار ، غالبا

ان الطريقة الاولى التى يمكن لنا معالجة اللغة من خلالها هى كون اللغة ظاهرة يختص بها الانسان الفرد ، وتمنى هذه الطريقة بوصف وشرح اللغة على اساس أنها أمر يتعلق بالسلوك البشرى ، فالناس يتحدثون ويكتبون ، ومن الواضح كذلك أنهم يقرأون ويفهمون ما يسمعون وهم لا يولدون ، فاعلين ذلك ، بل عليهم أن يكتسبوا تلك المهارات ، ويبدو أن جميع الأفراد لا يبنون تلك المهارات بنفس الدرجة ، اذ قد يصاب الأفراد في حوادث أو يعانوا من أمراض تجعل أداءهم عاجزا ، وهكذا تعتبر اللغة جزءا من نفسانية البشر ، نوعا معيناً من السلوك ، سلوكا تتركز وظيفته الرئيسية على التخاطب .

وتتمثل البلبلة التى يسببها مصطلح « سلوك » في أنه دائما يفهم ، الى حد ما ، على أنه إشارة الى الحركات والتصرفات المادية الصريحة والتى يمكن وصفها ، الا أن جزءا من السلوك اللغوى الخاص يفهم اللغة المكتوبة أو المنطوقة . على سبيل المثال ، ينطوى على قليل من الاشارات المادية التى يمكن ملاحظتها أو لا ينطوى على مثل تلك الاشارات اطلاقا . وفي الواقع يمكننا أحيانا أن نستنتج أن الفهم قد تم عن طريق التخيرات التى تحدث في سلوك الفرد الآخر ، فعندما يحظر على شخص اتيان تصرف ما ، فاننا نستنتج أنه فهم ذلك الحظر من خلال ملاحظتنا انه لا يتصرف على ذلك النحو أبدا ، وبالطبع لا يمكننا التأكد تماما من أن سلوكه التالى يعد نتيجة لفهمه . فقد يكون منشأ ذلك السلوك فقدان الاهتمام أو الميل وعلى هذا ، ينبغى أن يفهم السلوك على أنه يتضمن نشاطا غير ملحوظ ، غالبا ما يستنتج من سلوك ملحوظ آخر فحسب .

فاذا ما اعترفنا بأن دراسة السلوك اللغوى تتضمن وصف وتفسير أمور لا يمكن ملاحظتها ، أصبح الموقف أكثر تعقيدا ، اذ علينا أن نفترض جدلا وجود مجموعة من المعاملات ، وآلية داخلية تعمل حين نتحدث ونفهم ، يجب أن نفترض وجود شيء ما يسمى العقل . ومن وجهة النظر هذه يمكن اعتبار دراسة

ما نصف حديث الناس الى انفسهم بأنه تفكير بصوت مرتفع ، فمن الواضح ان ثمة علاقة وثيقة بين التفكير واللغة ، وتكمن الصعوبة في التثبت من ذلك كما يتضح من كتابات ادامز (1972) Adams (1) ومع ذلك نفى تعليم اللغات ، يتم التركيز على استخدام اللغة كوسيلة تخاطب بين الناس ، أى على وظيفتها الاجتماعية ، اذ لا داعى لاكتساب نوع من السلوك المعقد ما لم يكن نافعا للفرد وللمجتمع الذى ينتمى اليه ، بالطبع لا تمثل اللغة الصورة الوحيدة للسلوك البشرى في مجال التخاطب ، اذ قد يكون كل السلوك الصريح وسيلة للتخاطب بمعنى أننا نخرج باستنتاجات عن شخص ما من أى شيء يفعله ، أو من الملابس التى يرتديها ، أو من طريقة مشيته ، أو من طريقة تصفيف شعره . ولكن ذلك لا يزيد عن كونه وظيفة « عارضة » لسلوك غير لغوى ، لا وظيفته الرئيسية أو الوحيدة . ومن ناحية أخرى ، لا تمثل اللغة النوع الوحيد من سلوك وظيفته الرئيسية التخاطب ، فنحن نستخدم الاشارة ، ونلوح بيدينا ، ونرفع حواجبنا ، وتنتحج و « نحول ابصارنا » . كذلك لا يوصف كل سلوك صوتى بأنه لغوى : فالصراخ والزعييق ليسا من اللغة فى شيء ، بل ربما لا تزيد عبارات « الوداع » و « الترحيب » و « الاستفسار عن الحال » التى يمكن التنبؤ بها ، عن كونها سلوكا شبللغوى . فاللغة أو السلوك اللفظى عبارة عن نوع خاص من السلوك التخاطبى ومهمة العالم اللغوى هى تمييز اللغة عن غيرها من أنواع التخاطب الصوتى وغير الصوتى .

فالمتحدث انما يتصرف بالكيفية التى يتصرف بها لان تلك هى حال جمهور المستمعين ، ولا يمكننا ان نأمل فى تفسير ما يحدث فى محادثة دون ان تضع فى اعتبارنا الصفات المميزة لكلا المستمع والمتحدث وسلوكهما ، ومع ذلك فكلاهما « يودى » بطريقة لغوية . واللغة فى هذه الوجهة الثانية عبارة عن حادث اجتماعى ، لا يمكن وصفه تماما الا اذا عرفنا كل شيء عن الناس الذين يستخدمونها ، وعن شخصياتهم ، ومعتقداتهم ، ومواقفهم ، ومعرفتهم بالعالم ، وعلاقاتهم بعضهم ببعض ، وحالتهم الاجتماعية ، وماهية النشاط الذى يشتملون به ، وعن سبب حديثهم ، وما سبق

ذلك الحديث من الناحيتين اللغوية وغير اللغوية ، وما يلى ذلك من احداث ، وعن المكان الذى يوجدون فيه ، ومجموعة من الحقائق الاخرى عنهم وعن الموقف .

اذا كان الناس يودون الاشتراك فى لعبة ما فعليهم الاتفاق على قواعدها ، فاذا كان ينبغي ان يحدث تخاطب وجب ان يشترك اللاعبون فى نفس التقاليد ، فصيحائى واياءاتى الخاصة بى لا يمكن للملاحظ تفسيرها ، ، شأنها فى ذلك شأن التعبيرات بلغة اجنبية لا يمكن تفسيرها ، ونحن نستطيع التخاطب مع الناس لانهم يشاركوننا مجموعة من اساليب السلوك « المتفق عليها » ، واللغة بهذا المعنى عبارة عن شيء فى حيازة مجموعة اجتماعية ، مجموعة من القواعد التى لا غنى عنها تسمح لعضائها بالاتصال ذهنى ، وبالتفاعل ، والتعاون بعضهم مع بعض : انها عرف اجتماعى . والحيوانات ، ايضا ، تشترك فى مجموعة من اشارات التخاطب التقليدية وبالطبع يطور البشر والحيوانات ممن يعيشون معا ، مجموعة مشتركة من الاشارات كوسيلة للتخاطب فيما بينهم ، فيمكن لكلى ان يخبرنى بالوقت الذى يريد الخروج فيه للتنزه ، واستطيع ان اطلب اليه الحضور عندى دون اللجوء الى اية لغة بشرية . ومع ذلك اصبح من الامور المسلم بها دائما انه ثمة اختلاف اساسى فى نوع التعقيد ، لا فى درجته فحسب ، بين لغة الانسان ومجموعة تخاطب الحيوان . واخيرا وضع هذا الانتراض الطويل الاجل موضع البحث ، وقد يكشف ، نتيجة للدراسات المتواصلة التى يجريها علماء الاعراق البشرية (الانثولوجى) ان ذلك الاختلاف ليس بالشدة التى كانت تفترض فيه (جاردنر وجاردنر (2) Gardener and Gardener (1969)

دراسة اللغة لغويا :

قد يبدو من العجيب تصوير الدراسة الثالثة للغة كدراسة « لغوية » ، فان ذلك يوحى بان المعالجين السابقين لم تكونا معنيين باللغة ، او ان المصطلح « لغوى » يستخدم بطريقة خاصة الى حد ما . وفى واقع الامر ، وباختصار ، هذه هى طبيعة الحال ،

(1) Adams, P. (1972) Language In Thinking, Pen juin
(2) Gardener, R.A and Gardener, B.T. (1969) « Teaching sign language to a chimpanzee », science, n. 165 pp. 644-72

كجهاز ، ويهدف الى توضيح بنية اللغة ، ويقوم بتصنيف الموجودات اللغوية ، وقيم العلاقات بينها ، وهو في معناه العام معنى تماما بالعلاقة بين المعاني والاصوات ، ولتفسير هذه العلاقة كان من التقليدي أن تضع المعالجة « مستويات للوصف » وتلطف انواع الموجودات المختلفة التي تعالجها ، وانواع العلاقات المختلفة التي تجدها بين تلك الموجودات ، وتحمل هذه المستويات مسيات مألوفة مثل بناء الجملة وعلم الصرف ، وعلم الاصوات الكلامية ، وعلم تمثيل او تصوير الاصوات ، وقواعد اللغة ، وعلم دلالات الالفاظ وتطورها ، او اذا ما استخدمنا المصطلحات الاكثر شيوعا : النحو والمفردات والنطق .

ومن المحتمل أن تكون الدراسة اللغوية للغة اكثر المعالجات شيوعا حيث ان تاريخها طويل ، سواء في داخل أوروبا او خارجها ، ولهذا السبب فهي قد تكون اكثر التناولات تقدما وتعقيدا من الناحية النظرية . ولا تمثل بياناتها في الانراد وسلوكهم بل في النصوص والتعبيرات المسجلة ، وهي لا تحفل بأوجه التمايز بين المستمعين والمتحدثين ، ويكيفية اكتساب الناس للغة ، او بالدور الذي تؤديه اللغة في المجتمع .

الا ان النجاح والصقل المطلقين للدراسة اللغوية للغة يكفنا غالبا ، وكما سبق لي القول أن النظر الى اللغة هذه النظرة يعد من أكثر الاساليب « موضوعية » ، ومع ذلك فاللغة ليست شيئا ذا وجود حقيقي ، والموضوعية هنا تعنى التجريد ، وقد مالت الدراسة اللغوية للغة الى فقد علاقتها بالانسان والمجتمع نتيجة لتجريدها على هذا النحو ، وكلما زادت النظريات وعمليات وصف بنية اللغة تقدما ، قل المبرر لتفضيل أحد اساليب وصفها على ما عداها من اساليب ، وقد وصلنا الى نقطة ينبغي عندها أن تكون دواعي تبرير الوصف او النظرية الامثل اجتماعية او نفسانية (سيكولوجية) اي من حيث انسجامها مع أحد التناولين الآخرين .

المعاني الضمنية لتعليم اللغات :

الغرض من تدريس اللغات ، بالاضافة الى انه يجعل التلاميذ يتغلبون على عقبة تعليمية كاداء ،

وهو مستخدم هنا لعزو تناول اللغة ، ذلك التناول الذي تبنته الدراسة المعروفة باسم « اللغويات » ، ولكن نسبة احتمالا هنا لحدوث اللبس عندما اتخذ البروفيسور الن Allen (1) « الدراسة اللغوية للغات » عنوانا لمحاضراته الافتتاحية عام 1966 ، فقد استخدم نفس معنى المصطلح « لغوى » بالشكل الذي اعنيه ، وكذلك نجد في كتاب جلمسليف Hjelmslev (2) « اللغة » (1963) تعبير « اللغويات اللغوية » ، موحيا بأن اللغويات قد تتضمن لا المعالجة الخاصة التي انا بصدد تلخيصها فحسب بل كذلك المعالجتين اللتين سبق لي التحدث عنهما . وفي هذا المقام كان جلمسليف يتنبأ بالاتجاه الذي تتحرك اليه اللغويات بشكل متزايد ، اي كدراسة شاملة للغة ، وقد سبقت الاشارة الى تلك الدراسة على انها لغويات واسعة النطاق . وفي الواقع سأستخدم مصطلحي « لغويات » و « عالم لغوى » بمعناها العام والشامل ما لم يكن من الضروري - في سياق معين - تحديد المعالجة الجارى دراستها كما هو الحال في هذا القسم .

وأحيانا كان يطلق على الدراسة اللغوية للغة اسم دراسة اللغة من قبيل تكريمها (دى سوسر (De Saussure, 1961) (3) فاذا حسنا المعنى المتضمن من امكان دراسة اللغة لغرض « نافع » مثل تعليم اللغات ، اذا فهذا التعريف يميز تناول اللغة بهذه الكيفية عن التناولات التي تم تلخيصها ، بترسيخ اللغويات كدراسة مستقلة ، في حين انه يمكن اعتبار أن التناولات الاخرى تدخل ، على التوالي ، في نطاق علم النفس وعلم الاجتماع . ويجب أن يكون ثمة نوع من الانسجام بين الاطار الوصفي لدراسة اللغة واساليب تلك الدراسة بالنسبة للفرد وبين دراسة السمات الاخرى للسلوك البشرى والقدرات الادراكية . وبالمثل ، يجب أن تكون دراسة اللغة كظاهرة اجتماعية في انسجام مع نظريات البنية الاجتماعية ، والسلوك الاجتماعي ، والثقافة الانسانية . الا ان الدراسة اللغوية للغة تقيم جهازها النظرى الذاتى ، ولها أسلوبها الخاص في العمل ، وسيلها في النظر الى بياناتها وانتقائها . هذا ، والتناول اللغوى من أكثر التناولات « موضوعية » ، فهو يهتم باللغة

(1) Allen, W.S. (1966), « The linguistic study of languages », in P.D. Stevens (ed.), Five Inaugural Lectures, OUP.

(2) Hjelmslev, L. (1963), Language: An Introduction, F.J. Whitfield (trans.)

(3) De Saussure, F. (1961), Course in General Linguistics, W. Baskin (trans.) Peter Owen.